المفارقة مهيمنة في الخطاب الشعري عند الجواهري (قصيدة يانديمي) انموذجا

المدرس الدكتور
لمى عبد القادر خنياب
جامعة القادسية / كلية الآداب

المفارقة مهيمنة في الخطاب الشعري عند الجواهري (قصيدة ياانديمي) انموذجا

المدرس الدكتور
لمى عبد القادر خنياب
جامعة القادسية / كلية الآداب

المقدمة :

قد سبق لي دراسة التقابل الدلالي في شعر الجواهري وكانت قصيدة يا ابن الفراتين موضع البحث ، لكنني وجدت أن عمل مثل هذا يخرج بصناعة معجم تقابلي للشاعر من دون أن يقف عند توظيف الشاعر لهذه المتقابلات في إنتاج صوره وأفكاره الشعرية ، كذا البحث في بعض القضايا الشعرية فيأتي على قراءة هذه القضايا من دون استناد على مرجعيات لغوية معمقة كدراسة المفارقة مثلاً فيدرس الباحث أشكال المفارقة وأنواعها من دون الوقوف على البعد اللغوي لهذه المفارقة ؛ لذا عنَّ لي دراسة موضوعة أدبية (المفارقة) بناءاً على معطيات الدرس الدلالي الحديث متمثلاً بالتقابل الدلالي .
فجعلت البحث على محورين : الأول وقفت فيه عند أشكال المفارقة ، والثاني حللت فيه بنية المفارقة القائمة على المتقابلات الدلالية، فكشفت عن الاشتغالات الذهنية التي مرت بها المتقابلات قبيل إنتاجها وصولاً إلى صناعة المفارقة ، ثم أردفت البحث بمسرد للمتقابلات مبوبة بحسب حقولها التقابلية كشفاً عن المعجم التقابلي عند الشاعر في هذه القصيدة .

مدخل :

المفارقة نشاط عقلي معقد يقوم على الجمع بين المتناقضات لتحقيق الدهشة عند المتلقي بكسرها نسق توقعاته ، بإقامة علاقات ذهنية بين الألفاظ [١] ، لتسجل تناقضاً بين ظاهرتين تثير تعجب متلقيها من دون الحاجة إلى تفسير أو تعليل [٢]. تبدأ المفارقة غالباً من اللغة إذ يتحقق التقابل اللغوي على المستوى السطحي للتركيب ، بيد أن عنصر الدهشة يدفع بالمتلقي إلى الغوص في أعماق دلالات التراكيب كشفاً عن مرام منتج النص . ولم تقتصر المفارقة على الشعر فقط بل تعدته إلى الأجناس الأدبية الأخر .

ولما كانت المفارقة بناء عالم متخيل على أنقاض واقع معيش ، فينتعش في ظلها الخيال على حساب هدم الواقع ؛ لذا عدّها اليوسفي جوهر الحداثة[٣].

إن القارئ لقصيدة يا نديمي للجواهري يلمس هيمنة واضحة للمفارقة فيها ابتداء من المستوى السطحي لتراكيبها المتمثل بشيوع الثنائيات المتضادة و المتقابلة على معجم القصيدة و انتهاء بالمستوى العميق المتمثل بدلالات التراكيب وتقابلها مع بعضها .

ولما كانت المهيمنة – بحسب جاكبسون – هي العنصر البؤري الذي يحكم و يحدد و يغير العناصر الأخرى ويضمن تلاحم البنية [٤] ، عنّ لي أن أختبر هذه الرؤية في قصيدة

الجواهري لأتبين إن كان شيوع المفارقة فيها مهيمنة تحكم بناء القصيدة كما قال جاكبسن أم لا . فوجدت أن هناك جملة عناصر أساسية تواشجت فيما بينها لتنتج المفارقة في النص .

إن طبيعة النص وكذا الموضوعة تقتضي قراءة النص على قراءتين : الأولى وظائفية ، والثانية سياقية .

تعمل القراءة الوظائفية على تقص البنى السطحية و المهيمنات اللغوية التي وظفها الشاعر خدمة للمفارقة ، من مثل ذيوع الثنائيات المتقابلة التي عملت على إحصائها وتصنيفها بحسب حقولها الدلالية ، ثم تحليل بعضاً منها للوقوف على الاشتغالات الذهنية للشاعر قبيل إنتاج المتقابلات اللغوية .

كذا يلحظ قارئ النص أن القصيدة تقوم في بنائها اللساني على تركيبة النداء (يانديمي) والنديم هو رفيق الشرب بل قيل إن المنادمة مقلوب المدامنة فهو مدمن على السكر مع صديقه هذا فهو نديمه[٥] ، وفي هذا النداء إشارة واضحة إلى أن ما يقوله الشاعر جاء على لسان ثمل ، أكد هذا تكرارها (131) مرة في القصيدة ، ناهيك عن ألفاظ الخمر والشرب التي اكتنز بها النص ، لتأتي مبرراً لسيل المتناقضات و الجمع بين الأضداد سعياً وراء الكشف عن مفارقات جمة رصدها الشاعر في قصيدته .

أما السياقية فتقسم النص على وحدات يكون المعنى هو المعيار في تحديدها – بحسب رولان بارت[٦] - فتصبح الوحدة مستقلة في معناها عما سبقها وما يليها ، وبذا يمكن تفكيك القصيدة إلى (90) وحدة معنوية . وبتداخل هاتين القراءتين يمكن الكشف عن موضوعة المفارقة في هذا النص .

افتتح الجواهري قصيدته بأبيات أشعر متلقيه فيها بأنه إزاء سيل من المصارحات و المكاشفات ، إذ يقول :

يا نديمي : نفسي جُذاذات طِرسِ عَريتْ فوقها بطُهرٍ ورجسِ
من مراقي نعمى وهوات بؤسِ من أشمٍّ ومن أخسٍّ أخسِ[٧]

في هذين البيتين إيذان باعترافات جمة وما قوله : (جذاذات طرسٍ) إلا إحالة على التاريخ وما يحفظ بين صفحاته من بطولات ونكبات . ويعد قوله : (عريت فوقها بطهر ورجس) بؤرة النص ولب البوح والاعتراف بجملة من المفارقات و المتناقضات . فيحتشد البيتان بالثنائيات المتضادة و المتقابلة :

طهر≠ رجس
مراقي≠ هوات
نعمى ≠ بؤس
أشم ≠ أخس

وفي إحالة أخرى على التاريخ وما قد يحمله في طياته من زيف ليتم ما بدأ يقول :

كَذَبّ البحتري إذ قال أمسِ صِنْتُ نفسي عمَّا يدنسُ نفسي
دنسُ النفس حلة من دمقسِ لن تغطى ولو بمليون عرسِ

كذا يشتمل البيت على متقابلات مركبة : صنت نفسي ≠ يدنس نفسي

فإن كان صون النفس يرتبط بعلاقة ضدية مع دنس النفس فما علاقة الاثنين بعري

النفس في البيت الأول ؟

نعم في هذين البيتين ما هو إلا تكرار وتأكيد لما كان في البيت الأول فالكشف و البوح متأت من تعرية التاريخ بما فيه من طهر ورجس من مواطن تدنيس النفوس وصونها . ليردف مؤكداً استحالة إخفاء الحقائق وحجبها في قوله :

دنسُ النفس حلة من دمقس لن تغطى ولو بمليون عرسِ [٨]

في البيت تقابل واضح بين : (دنس النفس) و (حلة من دمقس) ، إذ يشبه دنس النفس بالحلة الدمقسية وفي هذه مفارقة واضحة وجه الشبه بينهما لا الجمال بل هو استحالة الإخفاء إذ لا يمكن إخفاء الحلة الدمقسية وكذا الدنس يؤكد ذلك بقوله : لن تغطى ولو بمليون عرس ، وهل يغطي العرس الثوب ؟ وكيف ؟ أم أراد تغطية الدنس ؟ وهل يغطى دنس النفس بالعرس ؟ وكيف ؟

بالعود إلى السياق نجده على المستوى النصي اسند فعل التغطية للحلة بيد أنني أرى أنه على المستوى العميق أراد الدنس وبذكر متعلقات الجسد الأنثوي (الحلة الدمقسية (الثوب) ، العرس) في إحالة على العرس الذي يغطي دنس الجسد الأنثوي ، فانزاح عن التعبير المباشر إلى آخر شبه خفي كاشفاً عن رأيه:إن كان دنس الجسد يغطى بالعرس فدنس النفس لا يغطى ولو بمليون عرس .

وقد تكررت هذه الثيمة أعني الاستتار من الدنس في قوله :

إي وعينيك قال ذاك عُراةُ حسبوا الكَذِبَ و الرياءَ كِسَاءاً [٩]

فغطوا عري أجسادهم بالكذب والرياء ولا يسع الكذب أن يغطي العريان كما هو العرس لا يغطي دنس النفس ، وفي موضع آخر استعاد هذه المتلازمة في قوله:

وإذا في ملاءة العهر طهر و إذا المحصنات هنَّ الزواني

فجمع بين الملاءة ودلالتها على الستر والعهر ودلالته على الافتضاح .

إن هذه الأبيات شكلت عتبة للنص كشفت عن تشضي ذات الشاعر بين الأمل والإحباط بفعل الازدواجية المزمنة والمستشرية في مجتمعاتنا، يؤكد هذا عوده في ختام مطولته إلى بدئها فكما كذّب البحتري من قبل كذب بعض الشعراء بقوله :

يانديمي : عوت ذئابُ الكلام حين شمت قتارة من ثريد

طلبت من طهاة أشقى نظام أن يعدوا خوان عهد سعيد [٩]

فقرن بين باعة الكلام (الشعراء) وباعة الوعود (الساسة) ، ثم يعود للإحالة على التاريخ فيقول :

أسوة منهم بكل العِهود

أشكال المفارقة :

في النص عدد من المفارقات تعد مفارقة الأمل / الإحباط هي المفارقة الإطارية التي تنضوي داخلها مفارقات صغرى تتداخل مع بعضها وتتفاوت في سعتها ، أولها ثنائية (الهرم / الشباب) فشملت الأبيات (9 – 85) ثم تليها ثنائية (الدعي / الأصيل) أو (الحقيقة / الزيف) وهي أكبرها شغلت الأبيات (86 – 427) .غير أن هذه المفارقة أنجبت مفارقات

أخر مثل مفارقة (الغنى / الفقر) ، ومفارقة (الموت/ الحياة) ، غير أنها لم تنفصل عن بعضها بل أخذت برقاب بعضها .

وظّف الجواهري التقابل الدلالي لبعض المفردات لإنتاج مفارقاته فيتحقق التضاد على المستوى السطحي ثم يُسحب إلى دلالة النصوص وصورها فتتحقق المفارقة ؛ لذا عمدت إلى صناعة مسرد لهذه الألفاظ وبوبتها بحسب حقولها الدلالية ألحقته بالبحث زيادة في الفائدة .

تمثلت مفارقة الدعي / الأصيل بعدد من الثنائيات المتضادة منها : (الرجس/ الطهر)،(القوة / الضعف) ، (السمو / الانحدار) ، فضلاً عن بعض الثنائيات المتفرقة[١٠]

جذّر الجواهري للازدواجية القيمية بقوله :

يا نديمي: وما هي القيم ... غيرَ ما زُخرفتْ به النظمُ
شاءهنَّ الخصيم و الحكم ... وَحماهنَّ صارم خـذِمُ
مَن رعاهنَّ فهو محتشمُ ... أو جفاهن فهو متـهمُ
يا نديمي: من لظى سقرِ
صيغ هذا اللجام للبشـر [١١]

ثم أعاد المعنى نفسه في موضع آخر :

يا نديمي: وما هي المُثل ... إذ يُساط الإيمان والدجلُ
والرسالات أين و الرُّسلُ ... حين يلوي بهن منتحلُ
فلذيَّاك باقة الزَهرِ
ولهذا الشواظ من سقر [١٢]

إن المفارقة الأم المثل والقيم المتأتية من مزج الإيمان بالدجل و اللزام الخلق بها ، هذه المنظومة القيمية الزائفة كل ما ترتب عليها فهو زائف ، منها تدفقت مفارقات جمة منها مفارقة (الثائر / الدعي) فيكشف صورتين من صور الأدعياء: أولها للساسة في قوله :

ياندميي : ومرَّ يومٌ وشهر ... و إذا القوم زينةُ البرلمانِ
وإذا في ملاءة العهر طهر ... وإذا المحصنات هنَّ الزواني
وإذا تلكم النيابات أجرُ ... عن مبيعِ الشهيد في دكـانِ
ياندميي: ومرَّ عام وثاني ... ثم جفّتْ خواضب الأكفانِ [١٣]

والثانية كانت في الشعراء ،إذ قال :

وبكى الزهر أن يُرى تيجـانا ... لرؤوسٍ محشوة بفسادِ
و شكا الشعر ذلَّهُ و الهـوانا ... لـ(حبيبٍ) و(أحمد) و(زياد)
وشجا الحرف أن هوجاً هِجانا ... تهتك الستر عن بنات الضاد
كم دعي دُعي فلم يَحِرِ
مثل بغلٍ عاصٍ فلم يدُرِ [١٤]

ثم ولدت هذه المفارقة ثنائية جديدة هي مفارقة (الغنى/ الفقر) فزخر النص بثنائيات الغنى والفقر ، كان جوهر هذه المفارقة بأن الغنى يأتي على حساب الفقراء ، وقد صرّح عن ذلك بقوله :

والسراة المبغددون كثار ألف دارٍ لهم هناك ودارُ
كم كؤوسٍ بما تشّهوا تدارُ ونعوتٍ ليس لهم تستعارُ
كلُّ بيتٍ لِلمترفين مزارُ بدم الخلق لا بزيتٍ يُنارُ
كم – بما يبتدعن من صُورِ في حروفِ الهجاء من عبرِ [١٥]

كذا قال في موضع آخر من النص :

يانديمي :و أمس خمسُ كعابِ كاشفات الصدور و الّلباتِ
حول فردٍ جُمعن كالأنصابِ لِصقَ خمس كالهيم في الفلواتِ
كعِطاشٍ إلى عتيـــــقِ شرابِ أُلزموا الصيام و الصلواتِ
فهم يلعقون في الخلـــــوات ما لدى غيرهم منَ الصبواتِ [١٦]

كاشفاً عن الظلم في قسمة كهذه فلرجل واحد خمس من الحسان و إلى جواره خمس من الرجال كالعطاش في الخلاء ليس لهم إلا الصيام حلاً.

إن عِقد هذه المفارقات لم يُفرط بل جاءت مفارقاته محبوكة تواشجت فيما بينها ، فجاور بين مفارقتي (الدعي/الأصيل) ، و(الغنى / الفقر) جاعلاً من الزيف والغنى في مصاف واحد ، خالطاً بين النضال والفقر ليكونا علامة على الثائر الأصيل، فيقول في أدعياء الثورة :

يانديمي : إن النضال مريرُ بدؤه الفقرُ و الردى منتهاهُ
ونضالٌ ،ونعمة ، وقصورُ ! ليس يدري معناه حتى اللهُ
يانديمي :كم ادعى مستجيرُ بجموعٍ أنَّ الجموع شياهُ
غير أنَّ التاريخ طواهُ
لم يجد فيه عِبرةً من سواهُ [١٧]

ويقول في الشاعر ذي العقيدة :

يانديمي : لم يبقَ لي ما أرجِّي غير ليتٍ وليتُ زرعٌ بصخرِ
ليت أني لبربرٍ أو لزنـــــــجِ أتغنى شجونهم طولَ عمري
نِصفَ قرنٍ ماً بين دُفٍّ وصَنجِ أتراني كنت أُنتُبِذتُ بفقرِ ؟
وتُجُوهِلْتُ مثل واوٍ بعمـــــــرِ؟
لستُ أدري ولا المنجم يدري ! [١٨]

ثم تبلغ المفارقة أقصاها عند استحكام اليأس والاحباط على ذات الشاعر فيدعوا صاحبه لمجاراة الموج قائلاً :

يانديمي: لكَ النصيحةُ مني ليس لي في نصيحتي ما اغِلُّ
خُذْ بعرس القرودِ دفاً وغني وقل الأهل أنتمُ والمحـــــــلُّ
صيدُ إنسٍ أنتم و أقبال جنٍّ جنة الخلد دون قرد تـــملُّ
لا نبالِ مَن يُجتوى أو يبـــــــلُّ
ما تمشّى منكم على الأرض ظلُّ [١٩]

غير أنه يفارق كلامه هذا بمقطع آخر ذكر فيه أصالة الحق وعلوه وخلود أربابه مهما صنع الطغاة في قوله :

ياندِيمي : أمس استمعت هُتافاً من بعيد...من غابرات القرونِ
أنْ كُنِ المرءِ لا يهابُ مطافا لنجاءٍ مشى به أو كمـــــينِ
إنَّ سقراط ذاق سُمّاً ذعافاً ليرى الفكرَ فوق ريب الظنونِ
ياندِيمي : ورغم كسرِّ السنينِ
ظَلَّ سقراطُ فوق ريبَ المنونِ [٢٠]

فيعاود لملمة جراحه ليعاود نضاله فيقول :

ياندِيمي : وربَّ ديوان شعرِ سلتُ فيه دماً، وفكراً وروحا
وتمازجتُ مثل كأسٍ وخمرِ أتبنّى جماله و القبيحـــــــــــا
كنتُ منه وكان مني كشطرِ لصقِ شطرٍ فيما يناجي ويوحى
أتملاه خاسراً وربيحـــــــا
أعاني جروحه والقروحا [٢١]

بيد أن الإحباط يعاوده فيختتم قصيدته بتوجيه التهمة لأرباب الكلام في صناعة الطغاة وتزييف الحقائق إذ يقول :

ياندِيمي : عوت ذئابُ الكلام حين شمت قتارة من ثريد
حللّت ما على خِوان اللئام شرطَ أن يشتوى (بفرن) جديدِ
طلبت من طهاة أشقى نظام أن يعدوا خوان عهد سعيد
طمعاً باقتطاع لحم الزنودِ
أسوة منهم بكل العِهود [٢٢]

وفي القصيدة مفارقات أخر منها مفارقة (الحياة / الموت) التي تضمن مفارقة (الشباب/ الهرم) ووظف الشاعر جملة من الثنائيات المتقابلة فيها لاسيما الثنائيات الدالة على الزمن للارتباط الواضح بين حداثة السن والهرم ، وقد تصدرت هذه المفارقة قصيدته فقال :

ياندِيمي : وأمس كنتُ أرود ملعباً أسرجتهُ غيدٌ ورُودُ [٢٣]

ثم يمضي يسرد ذكرياته مع الحسان وندمائه و الكأس والطرب ، ليستدرك قائلاً :

ياندِيمي سبحان بارِ براها عرضتْ مرةً فكذّبتُ عيني
وتحاملتُ جاهداً أنَّ أراها فمشت بينها السنون وبيني
غير أن الذي عراني عراها وكأني به تحيّنتُ حيني
ياندِيمي وخائبٌ كحنينِ
مستضلٌّ يبغي نسياً بعينِ [٢٤]

فيقف متحسراً عما فعل الزمن بمحبوبته ليدخله في دوامة من المفارقات بين روعة الشباب و قسوة الشيخوخة المنذرة بالعجز فالموت ، فيقول :

ياندِيمي : إن الشباب تولى مُلقياً على النفسِ ظلا
يمنع العمرَ بعد أن يملا ياندِيمي : وعفتُ إلا الأقلا
ذكريات مثل السراب تعلّى مُهماً فرطَ غُلةٍ أن تُبلا [٢٥]

ثم يفارق هذا بقوله :

يانديمي : هل الحياة خيالُ أم نسيجٌ يُعِدُّه منوالُ
يانديمي: ستون مرت ثقالُ رازحات كأنهن جمالُ
مثقلات.. أو مثلما تنهالُ صوراً في روايةٍ أبطالُ
يانديمي :تنهض الأطلالُ
من جديد إذ نحن غيب زوالُ [٢٦]

ثم يتحول بعد هذه المفارقة إلى أخرى سياسية تتداخل معها فيقول :

يانديمي : ووقني بلدا عَقُمَ الخيرُ فيه أن يلِـــــدا
هو جوعان متخمٌ حردا وهو عريان مكتسٍ عُقَدا [٢٧]

رابطاً بينها بقوله :

يانديمي : إن الحياة مُنى فإذا زُلْنَ فهي كالعدمِ [٢٨]

فبعدما كانت الحياة عند الجواهري ترادف الشباب وعنفوانه باتت ترادف الأماني ومطامح الشعوب في الحرية والاستقلال . ليُدخل بين هذه المفارقات ومفارقة (الغنى/ الفقر) ومفارقة (الأصيل/ الدعي) جاعلاً من الشباب رمزاً للحرية والثورة و الحياة الكريمة ، ومن الهرم والموت دالاً على استلابها محملاً الساسة وقادة الشعوب و أرباب الكلمة ذاك كله وما ترتب عليه من فقر وجوع وزيف .

بين ما تقدم من مفارقات تخيم مفارقة شفيفة تغشي هذه المفارقات وهي مفارقة (الأمل / الإحباط)ففي كل مفارقة من المفارقات السابقة نجد أن مخالب اليأس تارة تطبق على عنق النص وصوره وتارة نرى بروق الأمل تجلو ظلمة النص .

بنية المفارقة :

تقدم القول بأن الجواهري اعتمد بنية التقابل الدلالي لبعض الألفاظ لينتج مفارقاته ، ولتتم الفائدة عزمت على تحليل بعض المقاطع من قصيدته لأقف عند التوظيف اللغوي لهذه المتقابلات ،واشتغالاته اللغوية في إنتاج التقابل الذي يفضي إلى إنتاج المفارقة ، إذ تمر بنية التقابلات بمستويات عدة قبيل صياغتها ، ولاسيما إذا كانت هذه المتقابلات غير متقابلة معجمياً[٢٩] . وسيقع الاختيار على مقطع واحد لكل شكل من أشكال المفارقة في القصيدة . ومن ذلك ما جاء في مفارقة (الدعي/ الأصيل) :

يانديمي : ولم أجد نَصَفَا أعوز الناسَ كلّهم نَصفُ
مَن جسا منهم ومن لطفا ومَن إلتاث باسمه الشرف
وقوانين شرعت هدفـــا ما بها رميةٌ لمن هَدَفوا
يانديمي : ورغم ما وصفوا
ظلَّ شُحٌّ بجنبـــــه سَرَفُ [٣٠]

هنا يكشف الشاعر عن زيف قوانين شُرعت لم تحقق العدل لأي كان فبقي ميزان العدالة مائلاً متجسداً بمجاورة القحط للإسراف ، في البيت عدد من الثنائيات المتضادة :

١ -جسا ≠ لطفا :

الجسو الصلب ، ويد جاسية : يابسة العظام قليلة اللحم [٣١]، أما اللطف فهو الرفق، وكذا يقال: جارية لطيفة الخصر أي ضامرة البطن ، واللطف في الشيء الصغر [٣٢]، وهو الجميل من الفعل[٣٣]، وعلى الرغم من قول صاحب اللسان: " جسا ضد لطف " [٣٤] ،إلا أنني أرى أ (جسا) في هذا الموضع تعني (القسوة) في مقابل اللطف الدال على الرفق و الرقة فتكون بنية التقابل :

المستوى العميق (المثالي) = القسوة ≠ الرقة
المستوى الأول = جسا = الصلابة والتيبس
المستوى الثاني : لطف = الترفق والرقة
المستوى السطحي = جسا ≠ لطفا

غير أن توظيف هذا التقابل هنا يحمل دلالات هامشية تأتت من امتزاج معنى القسوة بالتيبس والصلابة فأوحت بقسوة القلب وغلظة الطبع ،وكذا اللطف دلَّ على رقة القلب والطبع واللين . وفي البيت ثنائية أخرى مختلفة في بنائها :إلتاث / الشرف واللوث هو الشر ويقال: لوّث ثيابه بالطين إذا لطخها ، ولوّث الماء إذا كدّره [٣٥]، أما الشرف فهو المجد والحسب[٣٦] ، وقد ماثل قدامة بن جعفر بين الشرف و الكرم ، والطهر [٣٧] . وبهذا تكون بنية التقابل كالآتي :

المستوى العميق= التاث ≠ الشرف
المستوى الأول = أراد هنا أن يعبر عن التلطخ بالرجس فاستعمل اللوث الدال على التلطخ بالطين ،وصاغ منه الماضي فقابل بالاسم ليضفي عليه صفة التجدد و الحركية وليس الثبات الذي توحي به الجمل الاسمية[٣٨]
المستوى الثاني = الطهر وهو الترفع عن الرجس فصار الشرف = الطهر
المستوى السطحي = التاث ≠ الشرف

كذا يحمل هذا المقطع ثنائية أخرى هي : الشُّح/ السَرَف ، والشح : البخل بل هو أشد البخل وأبلغ في المنع [٣٩]، أما السرف فهو التبذير و مجاوزة القصد [٤٠] ، إن الشح والسرف متقابلان من حيث الوضع اللغوي لكنني لا أحسب أن الشاعر أراد بالشح البخل بل أراد الفقر و الفاقة ، ولما كان الإسراف مظهر من مظاهر الترف والغنى فجاور بينهما ليخرج بمفارقة مجاورة الفقير للغني المبذر ، وهذا المعنى يختل إذا ما جعلنا الشح بمعنى منع المال وحبسه مع وجوده .

فاجتهد الجواهري في صياغة التقابلات في أبياته هذه لينتج لنا مفارقة القوانين التي لم تضمن العدل لا لقوي أو ضعيف ولا لغني أو فقير .

وبدا أنه لم يكتف بأشكال الظلم التي ساقها بل راح يكشف عن سواها فقال :

يانديمي : وشفني حَزَنُ ... أن تساوى القبيح والحَسنُ
و الغبي السفيه و الفطِن ... وطهورٌ وجيفةٌ عَفِنُ
يانديمي وضاع مؤتمـــنُ ... في خؤونٍ و أفوهٌ لَسِنُ
في حصورٍ ، ومحكم السور ... في خِضمٍ من تافه الهذرِ [٤١]

في هذه الأبيات حفنة من المتقابلات اللغوية رسم بها كماً من المفارقات تنتمي في

معظمها إلى مفارقة (الدعي/ الأصيل) ، أولها ثنائية (القبيح/ الحسن) ويأتي التقابل بينهما مباشراً من دون اشتغالات فكرية مطولة ، إذ يقول ابن منظور : " القبح ضد الحسن يكون في الصورة"[٤٢] .

أما التقابل الآخر فقد جرى بين المتماثلين(الغبي و السفيه) و(الفطن) إن بنية التقابل ارتكزت على امتزاج بنية التماثل (الغبي / السفيه) بمقبلتها بـ(الفطن). وغبي عني الشيء أي خفي والغبي الغافل [٤٣]، أما السفه فأصله الخفة و الحركة ، وقيل: الجهل [٤٤] ، و الفطنة الفهم[٤٥] ؛لذا فإن المقابلة بين الغبي والفطن مقابلة مباشرة ، قال ابن منظور: " الفطنة ضد الغباوة"[٤٦]، أما المقابلة بين السفيه والفطن فقد تأتت من مقاربته بين السفيه والغبي ، فإن كان السفه يعني الجهل وغياب المعرفة فالغباء اختفاء المعرفة ، بهذا تكون تحولات بنية التقابل كالآتي:

المستوى العميق= غياب المعرفة = اختفاء المعرفة ≠ الفهم

المستوى الأول = الجهل = الغباوة ≠ الفهم = الفطنة

المستوى الثاني = السفه = الغباوة ≠ الفطنة

المستوى السطحي = السفيه = الغبي ≠ الفطن .

أما التقابل الآخر فمماثل لسابقه وهو :

طهور ≠ (جيفة عفن)

فماثل بين الجيفة والعفن ليقابلهما بالطهور . والعفن هو الفساد من نُدُوَّةٍ وغيرها [٤٧] ، و الجيفة " جثة الميت إذا أنتنت"[٤٨] ، أما الطهر فهو ضد النجاسة [٤٩] ، فقارب بين الجيفة وهي الجسد بعد أن يفسد وبين العفن وهو فساد الشيء فتنتج النجاسة عن الأول والوسخ عن الثاني ، وتكون بنية التقابل :

المستوى العميق = النجس = الوسخ ≠ الطهور

المستوى الأول = الجسد الفاسد = الشيء الفاسد ≠ الطهور

المستوى السطحي = الجيفة = العفن ≠ الطهور

وتقترب ثنائية أخرى من الحقل التقابلي هذا وهي ثنائية (مؤتمن ≠ خؤون)، فقابل بين الأمانة والخيانة وضياعها في سيادة الخائن . وكذا في البيت نفسه قابل بين (أفوه لسن) وحصور ، متحولاً إلى حقل تقابلي آخر هو (البلاغة / العي)

والأفوه هو المِنْطِيق البليغ [٥٠] ، أما اللسن فهو الفصيح [٥١]،مقابلاً إياهما بالحصور وهو العيي غير القادر على الكلام[٥٢]، ثم أردف هذا التقابل بآخر من الحقل نفسه فقابل بين محكم و (تافه و الهذر).

وإذا ما تحوانا إلى مفارقة (الشباب / الهرم) نجد أن أجمل بنية تقابلية في النص هي قوله :

ياندیمي : وحفنة من ترابِ

كللتْ رأس مزمن متصابي[٥٣]

فقابل بين (مزمن ومتصابي) والمزمن مَن طال عليه الزمان فيقال : أزمن في المكان : أقام به طويلاً ، فهو مزمن [٥٤] ، أما المتصابي فهو الميل إلى الجهل والفتوة ، والصبا حداثة السن[٥٥] .وبهذا يكون التصابي حاملاً لدلالتين : الأولى حداثة السن ، والثانية

الميل للهو والجهل، أما المزمن فيدل على كبر السن وما يستدعيه هذا من رجاحة العقل والخبرات ، فقابل بينهما لأجل ذا فصوَّر حاله شيخاً ذا لُب محملاً بهموم سنينه لاهياً كصبي، بيد أن النهاية لا مهرب منها صرّح بها في قوله : (حفنة من تراب) في إحالة على الموت فالشيخوخة نذير الموت مهما كانت روحه فتية فكانت مفارقة مأساوية نمت عن صراع الإنسان مع قدره[٥٦].

وفي ثنائية أخرى أفصح عن أسمى مفارقاته وهي مفارقة (الموت/ الخلود)ذاك الخلود الذي يتحقق بالقتل جاعلاً شهادة الفكر متمثلة بسقراط انموذجاً له فقال :

يانديمي : أمس استمعت هُتافاً ... من بعيد...من غابرات القرونِ
أنْ كُنِ المرءِ لا يهابُ مطافا ... لنجاءٍ مشى به أو كمـــــينِ
إنَّ سقراط ذاق سُمّاً ذعافاً ... ليرى الفكرَ فوق ريب الظنونِ
يانديمي : ورغم كسرِّ السنينِ
ظَلَّ سقراطُ فوق ريبَ المنونِ [٥٧]

البيت فيه تقابل افرادي وهو (نجاء ≠ كمين) و آخر تركيب (إنَّ سقراط ذاق سُمّاً ذعافاً ≠ ظَلَّ سقراطُ فوق ريبَ المنونِ) فدلَّ التركيب الأول على القتل على حين دلَّ الثاني على الخلود فتكون بنية التقابل كالآتي:

المستوى العميق = الموت ≠ الخلود
المستوى الأول= القتل ≠ بقاء الذكر
المستوى السطحي = ذاق سماً ذعافاً ≠ ظلَّ فوق ريب المنون

يعزز هذا إشارته إلى تقادم زمن سقراط بقوله : سمعت هتافاً...من غابرات القرون) ثم قال : (ورغم كسر السنين) فعلى الرغم من تقادم زمن قتل سقراط إلا أنه مازال خالد الذكر.

وبالعود إلى التقابل الإفرادي (نجاء ≠ كمين) ففيه إحالة على الحياة والموت ، فالنجاء الخلاص من المهلكة ، أما الكمين فهو المهلكة :

المستوى العميق = الموت≠ الحياة
المستوى الأول = الهلاك ≠ الخلاص
المستوى السطحي= كمين ≠ نجاء

وإن كان في هذا النص مفارقة للحياة والموت إلا أنها مفارقة تفائلية وليست مأساوية كسابقتها ففيها فارق أنساق الأدعياء المتلونين بحسب ما يشتهي ولاة الأمر من دون تفكّرٍ في مبدأ أو عقيدة ، على حين يصور صاحب الرأي و المبدأ يستوي عنده الموت والحياة ، الهلاك والخلاص دفاعاً عما يعتقد فتعالى سقراط على القتل و الموت فكان له الخلود والسمو .

ملحق

مسرد للمتقابلات الدلالية

* ثنائية (الطهر ≠ الرجس) وتشتمل على (14) متقابلاً وهي كالآتي

١. طهر≠ رجس
٢. اشم ≠ اخس
٣. دنس ≠ حُلة
٤. الإيمان ≠ دجل
٥. خؤون ≠ موتمن
٦. طهور ≠ جيفة / عفن
٧. العهر ≠ الطهر
٨. المحصنات ≠ الزواني
٩. محتشم ≠ متهم
١٠. نصيح ≠ متهم
١١. عار ≠ فخار
١٢. عار ≠ مجد
١٣. جريمة ≠ عقاب
١٤. التاث ≠ الشرف

* ثنائية (الغنى ≠ الفقر) وتشتمل على (12) متقابلاً وهي كالآتي :

١. عمى ≠ بؤس
٢. شقاء ≠ نعيم
٣. الشنقاء ≠ النعيم
٤. جوعان ≠ متخم
٥. شح ≠ سرف
٦. رافه ≠ هيم
٧. الجئع ≠ الشبع
٨. شوه ≠ رخاء
٩. كظيظ ≠ محروم
١٠. عريان ≠ مكتسٍ
١١. الغنى ≠ تفتقر
١٢. تستدر ≠ العجاف

*ثنائية (السمو ≠ الانحدار) وهي (9) متقابلات وهي كالآتي :

١. مراقي ≠ هوات
٢. منيف ≠ ركيس
٣. انحدار ≠ صعود
٤. ارتكاس سمو ≠ منحدر
٥. الربى ≠ السفوح
٦. سفوح ≠ هضاب
٧. منيف ≠ وثوب

٨. مسفٍ ≠ عالى
٩. هوى ≠ سما

* ثنائية (القوة ≠ الضعف) وفيها (5) متقابلات فقط :
١. اللطيف ≠ العنيف
٢. تبتهج ≠ تخيف
٣. صغار ≠ ضخام
٤. عماليق ≠ أقزام
٥. جسا ≠ لطفا

* ثنائية (الشباب ≠ الهرم) وفيها(4) متقابلات فقط :
١. الشبيبة ≠ الهرم
٢. شباب ≠ الهرم
٣. أرذل العمر ≠ الصغر
٤. مزمن ≠ متصابي

* متقابلات زمانية وفيها (4) متقابلات فقط :
١. غبوق ≠ مصطبح
٢. بكرة ≠ عشاء
٣. الدجا ≠ وضحا
٤. الليل ≠ النهر

* متقابلات متفرقة وهي (22) متقابلاً
١. أفوه ، لسن ≠ حصور
٢. الرشد ≠ الظلال
٣. محكم ≠ تافه الهذر
٤. العوراء ≠ الحور
٥. الحكمة ≠ الهراء
٦. عداك ≠ فداك
٧. منتج ≠ عقيم
٨. نجاء ≠ كمين
٩. محسن ≠ مساء
١٠. الشذوذ ≠ القياس
١١. الجمال ≠ القبح
١٢. الخاسر ≠ الربيح
١٣. الاصطناع ≠ الطبع
١٤. السكون ≠ الاضطراب
١٥. الحسن ≠ الهناة
١٦. الخصم ≠ الحكم

١٧. صفو المطامح ≠ الحسد
١٨. حبيك ≠ هتيك
١٩. النُّجح ≠ الفشل
٢٠. سنيح ≠ برحا
٢١. بارح ≠ سنحا
٢٢. باقة الزهر≠ الشواظ من سقر المجموع (70) متقابلاً .

هوامش البحث

١ - المفارقة ، نبيلة إبراهيم : 123، مجلة فصول ،مج : 7 ، ع 3-4 ،1987م .
٢ - ينظر ابن سينا الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، عبد العزيز الاهوان :105
٣ - بنية الشعر العربي المعاصر ، د . محمد اليوسفي :29 - 30
٤ - ينظر نصوص الشكلانيين الروس : 81
٥ - ينظر لسان العرب (ندم) 12 / 573
٦ - ينظر التحليل البنيوي للقصة القصيرة : 41 - 43
٧ - الديوان : 121
٨ - الديوان : 121
٩ - الديوان : 163
١٠ - ينظر مسرد المتقابلات الدلالية في الملحق
١١ - الديوان : 129
١٢ - الديوان : 135
١٣ - الديوان : 145
١٤ - الديوان : 131
١٥ - الديوان : 144
١٦ - الديوان : 162
١٧ - الديوان : 143
١٨ - الديوان : 137
١٩ - الديوان : 146
٢٠ - الديوان : 153
٢١ - الديوان : 155
٢٢ - الديوان : 163
٢٣ - الديوان : 124
٢٤ - الديوان :126
٢٥ -الديوان : 129
٢٦ - الديوان : 129
٢٧ - الديوان : 133
٢٨ - الديوان : 133
٢٩ - ينظر البلاغة العربية قراءة أخرى : 358
٣٠ - الديوان : 134
٣١ - ينظر لسان العرب : (جسا) 14 / 147

٣٢ - ينظر لسان العرب : (لطف) 9 / 316
٣٣ - ينظر الفروق اللغوية : 246
٣٤ - ينظر لسان العرب : (جسا) 14 / 147
٣٥ - ينظر لسان العرب : (لوث) 2 / 185
٣٦ - ينظر لسان العرب (شرف) : 9 / 169
٣٧ - ينظر جواهر الألفاظ : 54
٣٨ - ينظر قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم : 36
٣٩ - ينظر الألفاظ (ابن السكيت) : 69 ، و فقه اللغة وسر العربية : 179 لسان العرب : شحح :2 / 495
٤٠ - ينظر لسان العرب : سرف: 9 / 148
٤١ - الديوان : 135 - 136
٤٢ - ينظر لسان العرب : (قبح) :2 /552
٤٣ - ينظر الألفاظ (ابن السكيت) : 191 ،و لسان العرب : (غبي) 15 /114
٤٤ - ينظر الفروق اللغوية : 98 ،و لسان العرب : (سفه) :13 / 497، رسالة التامة في الفروق (محمد جعفر الكرباسي) : 193.
٤٥ - ينظر الألفاظ (ابن السكيت) : ،و الفروق اللغوية : 98 ،و لسان العرب : (فطن) :13 /323
٤٦ - ينظر لسان العرب : (فطن) :13 /323
٤٧ - ينظر مختصر العين (عفن) : 1 /368 ،و لسان العرب : (عفن) :13 / 288
٤٨ - لسان العرب : (جيف) : 9 / 37
٤٩ - ينظر المصدر نفسه : (طهر) 4 /504 ، و التعريفات : 116
٥٠ - ينظر لسان العرب : (فوه) :13 / 529
٥١ - ينظر فقه اللغة وسر العربية / 144،و لسان العرب : (لسن) :13 / 386
٥٢ - ينظر فقه اللغة وسر العربية / 147 ،و لسان العرب : (حصر) :4 / 193
٥٣ - الديوان : 126
٥٤ - ينظر لسان العرب : (زمن) :13 / 198
٥٥ - ينظر لسان العرب : (صبا) :14 / 449
٥٦ - ينظر دي ، سي ، ميويك : 33-34
٥٧ - الديوان : 153

قائمة المصادر والمراجع

- ابن سينا الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، د.عبد العزيز الاهواني ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة / 1962م .
- الألفاظ ، ابن السكيت ، تحقيق : لويس شيخو ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ،1897 م.
- بنية الشعر العربي المعاصر ، د . محمد لطفي اليوسفي دار سارس للنشر ، تونس /1985م
- البلاغة العربية قراءة أخرى ،د0محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر –لونجمان ،ط1 ، 1997 م .
- التحليل البنيوي للقصة القصيرة ، رولان بارت ، ترجمة : نزار صبري ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، الموسوعة الصغيرة ، 259 .
- جواهر الألفاظ ، قدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العلمية

- ديوان الجواهري ، تحقيق : د. مهدي المخزومي ، د . ابراهيم السامرائي ، د . علي جواد الطاهر ، رشيد بكتاش ، مطبعة الأديب ، بغداد / 1975م .
- الرسالة التامة في الفروق، للشيخ محمد جعفر الكرباسي ، دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد / 2009 م.
- الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري(ت400هـ) علق عليه ووضع حواشيه : محمد باسل عيون السود ،دار الكتب العلمية ، بيروت، ط3 ،2005م0
- فقه اللغة وسر العربية ،أبو منصور الثعالبي (429هـ) ، تحقيق: د. جمال طلبة ، منشورات محمد علي بيضون ،دار الكتب العربية ،بيروت ،2001م.
- قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم ، سناء حميد البياتي ، دار الوائل للنشر، عمان ، الأردن / 2003م .
- لسان العرب ، للإمام العلامة جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت 711هـ) ،دار صادر، بيروت ، د0ت
- مختصر العين ، لابي بكر الزبيدي ، تحقيق : د . صلاح مهدي الفرطوسي ،دار الشؤون الثقافية ، بغداد ،ط 1، 1990
- المفارقة ، دي. سي. ميويك ، ترجمة : د . عبد الواحد لؤلؤة ، موسوعة المصطلح النقدي ،ج 13 ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، العراق /1983م .
- المفارقة ، نبيلة ابراهيم ، مجلة فصول ،مج : 7 ، ع 3-4 ،1987م .
- نصوص الشكلانيين الروس ،تقديم تدوروف ، ترجمة ابراهيم الخطيب ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت / 1982م .